روزا لوكسمبورغ

الكنيسة والاشتراكية

تم طبع هذا الكتاب من قبل مؤسسة روزا لكسمبورغ من خلال الدعم المقدم لها من وزارة التعاون الاقتصادي والتنمية الالمانية

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
مكتب شمال إفريقيا

العنوان: 23، شارع
يوغرطة، 1082 تونس
+216 71 846 313
infotunis@rosalux.org
www.rosaluxna.org

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
مكتب شمال إفريقيا

روزا لوكسمبورغ

الكنيسة والاشتراكية

عن الألمانية: محمد أبوزيد

مراجعة: أحمد فاروق

مقدمة من مؤسسة روزا لوكسمبورغ

في نصّها الـذي يتطـرّق إلى العلاقـة بـين مؤسسّـات الكنيسـة والقـوى الاشـتراكية والديمقراطيـة الاجتماعيـة في أوروبـا، تشـير روزا لوكسـمبورغ إلى ضرورة نظر القوى التقدميـة إلى مـا هـو أبعـد مـن الانقسـامات السّـطحية بينهـما. كـما أنّهـا تشـدد عـلى أنّ النضـال الرّئيـسي للقـوى التّقدميـة هـو العثـور عـلى حلفـاء في المعركـة ضـد الرأسـمالية واسـتغلال العـمّال. وبالنّسـبة لهـا يحمـل الدّيـن (المسـيحي) قيـما ،مشـتركة مـع القـوى الاشـتراكية، "تناسـتها" مؤسسـات الكنيسـة لتقـف في صـفّ واحـد مـع النّخـب الرأسـمالية.

كتبـت روزا لوكسـمبورغ هـذا النّـص قبـل 112 عامـا، ومـع ذلـك تبقـى أهميتـه عاليـة ليـس فقـط بالنّسـبة لأوروبـا، ولكـن أيضـا بالنّسـبة للكثـير مـن البلـدان حيـث المسـيحيّة ليسـت الديانـة السـائدة. ففـي العديـد مـن البلـدان في شـمال أفريقيـا وغـرب آسـيا، يناقـش اليسـاريّون الإسـلام بنفـس طريقـة المجتمعـات

الأوروبيّة. عديد الخطوط الفكريّة المستوحاة من الإسلام، ومنظّمات مختلفة تقوم على المبادئ الإسلامية يتمّ تصنيفها في خانة واحدة ليبدو النضال الرّئيسي في كثير من الأحيان وكأنّه ضدّ الدين. وبهذه الطريقة، غالبا ما ينظر إلى المنظّمات اليسارية كغريبة داخل مجتمعاتها، أو على الأقل كقوى لا تمثل القيم والثّقافة المحلية.

دعت روزا لوكسمبورغ لإلقاء نظرة فاحصة ومتباينة إزاء هذه المسألة. وكان هدفها واضحا: لكي ينجح النضال من أجل المزيد من العدالة الاجتماعية، ينبغي على القوى السياسية التقدّميّة أن تمثّل صوتا لتلك الفئات من السّكان الذين يعانون من الاستغلال والفقر، بغض النظر عن معتقداتهم، وأن تؤسّس تحالفات مع القوى السياسية التي تشاركها هذا المبدأ.

ترجم كلّ من محمد أبو زيد (فلسطين) وأحمد فاروق (ألمانيا) النصّ من الألمانيّة إلى العربيّة. وقد تعاون كلاهما مع المؤسّسة سابقا لترجمة مجموعة نصوص مختارة لروزا لوكسمبورغ والتي نشرت باللغة العربية من خلال مكتبنا في فلسطين. يمكن النفاذ لهذا الكتاب عبر الإنترنت:

http://www.rosaluxemburg.ps/wp-content
uploads/2016/05Capitalism-Book-LOW.pdf.

أنتم أيضا مدعوون لتسلّم نسخة ورقية من الكتاب في مكتبنا في تونس.

بيتر شيفر

مدير مكتب شمال إفريقيا

كتبت روزا لوكسيمبورغ هذه الكراسة تحت الاسم المستعار يوسف حمورة Josef Chmura خلال ثورة 1905. وقد تمت الترجمة حسب طبعة موسكو 1920 التي وفرها يوليان مارخليفسكي والمتواجدة في نصوص روزا لوكسيمبورغ البولندية، التي ظهرت تحت عنوان: «الدولية وصراع الطبقات» التي حررها ي. هنتسه Henze عام 1971 في المجموعة التي أصدرتها دار نشر لوخترهاند Luchterhand.

1

منذ أن شرع العمال في جميع أرجاء بلدنا – كما في روسيا أيضاً – في كفاحهم المتواصل ضد الحكومة القيصرية والمستغلين الرأسماليين، أصبحنا كثيراً ما نسمع أن القساوسة في مواعظهم يؤلبون على العمال المكافحين. ويزداد الخطاب حدة حين يهاجم رجال الدين لدينا الاشتراكيين، محاولين بكل ما أوتوا من قوة تشويه سمعتهم لدى العمال. فكثيراً ما يحدث الآن أن أناساً مؤمنين ممن يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد والعطل من أجل سماع المواعظ وإدراك السلوى والسلوان ، يجدون أنفسهم مجبرين، بدلاً من ذلك، على سماع خطبة حادة وأحياناً قاسية حول السياسة والاشتراكيين. وبدلاً من دعم الناس المهمومين والمعدمين بفعل حياتهم القاسية، هؤلاء الذين يذهبون بورع وتقوى إلى الكنيسة، ينتقد القساوسة بعنف العمال المضربين أو المناضلين ضد الحكومة، ويقنعونهم بتحمل العوز والاضطهاد بهوان وصبر جاعلين من الكنيسة والمنبر مكاناً للتحريض السياسي.

لا بد لكل عامل أن يقر، انطلاقا من تجربته الذاتية، أن هذا السلوك العدواني لرجال الدين ضد الاشتراكية الديمقراطية ليس له ما يبرره من طرفهم. فالاشتراكيون الديمقراطيون لم يسعوا أبداً إلى خوض صراع مع كنيسة أو رجال دين، بل يسعون إلى حشد العمال وتنظيمهم للنضال ضد رأس المال، أي للنضال ضد استغلال أرباب العمل الذين يمتصون دماءهم، ضد الحكومة القيصرية التي تضيق الخناق على الشعب أين ما ذهب، ولكن لا يشجع الاشتراكيون الديمقراطيون العمال أبداً على محاربة رجال الدين ولا يحاولون أبداً تجريدهم من معتقدهم الديني، بل على

العكس من ذلك! يتمسك الاشتراكيون الديمقراطيون عندنا، كما في جميع أنحاء العالم، بمبدأ أن ضمير الإنسان ومعتقده أمور مقدسة غير قابلة للتدخل. فكل فرد حر في ممارسة المعتقد والقناعة التي تسعده. ولا يجوز لأحد ملاحقة أو إهانة قناعات البشر الدينية. هذا ما يعتقد الاشتراكيون الديمقراطيون. ولذلك يدعون، من بين أمور أخرى، جميع أفراد الشعب إلى النضال ضد الحكومة القيصرية، تلك التي تغتصب ضمائر الناس وتلاحق الكاثوليك والكاثوليك الشرقيين واليهود والزنادقة ومن لا ملة لهم. وهكذا يدافع الاشتراكيون الديمقراطيون بوجه الخصوص بحماس عن حرية الضمير والعقيدة الخاصة بكل فرد. ولذلك ربما يعتقد المرء أن على رجال الدين تشجيع وتفضيل الاشتراكيين الديمقراطيين، كونهم يُثقفون الشعب العامل. ليس هذا فقط. فإذا ما أمعنا النظر في ما يسعى إليه الاشتراكيون الديمقراطيون أصلاً وأية تعاليم يبشرون بها الطبقة العاملة، تصبح حينئذ كراهية رجال الدين لهم أكثر غرابة.

فالاشتراكيون الديمقراطيون يسعون إلى القضاء على هيمنة الزبانية والمستغلين الأثرياء على الشعب الفقير العامل. وبناء على ذلك، حري بالمرء القول، كان على خدم الكنيسة أن يدعموا أولاً الاشتراكيين الديمقراطيين وأن يمدوا لهم يدهم؛ فتعاليم المسيح، التي خدمها هم القساوسة، تقول "أن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله"! يسعى الاشتراكيون الديمقراطيون في جميع الأقطار إلى تقديم نظام اجتماعي يقوم على المساواة بين الناس جميعاً والحرية والأخوة. وهنا أيضاً استوجب على رجال الدين الترحيب بالتحريض الذي يمارسه الاشتراكيون الديمقراطيون، في حال كانوا صادقين في أن يُطبق المبدأ المسيحي الأساسي في

الحياة البشرية: "أحبب قريبك كنفسك". يسعى الاشتراكيون الديمقراطيون في كفاح لا يعرف الكلل من خلال التثقيف والتنظيم لانتشال جماهير العمال من الإذلال والعوز وضمان حياة أفضل لهم و مستقبل أفضل لأطفالهم. ومن أجل ذلك أيضاً - يجب أن يقر كل فرد بذلك - يستوجب على القساوسة القيام فقط بمباركة الاشتراكيين الديمقراطيين، كون المسيح الذي القساوسة هم خدمه، قد قال: "بما أنكم فعلتم ذلك بأحد أخوتي هؤلاء الصغار، فبي فعلتم."

ولكن بدلاً من ذلك نرى أن رجال الدين يقومون بحرمان الاشتراكيين الديمقراطيين كنسيّاً وملاحقتهم، ويحثون العمال على تحمل قدرهم بصبر وإناء، أي أن يصبروا على استغلال الأغنياء - الرأسماليين - لهم. يحرض رجال الدين ضد الاشتراكيين الديمقراطيين ويحثون العمال على عدم "التمرد" على سلطة الحكومة، أي أن يصبروا على اضطهاد الحكومة، التي تقوم بقتل الناس العزل والتي ترسل مئات الآلاف من أبناء الشعب إلى الحرب، أي إلى حمام دم مرعب، ومطاردة الكاثوليك والكاثوليك الشرقيين والأرثودوكس القدامى بسبب معتقداتهم. هكذا يقف رجال الدين حين يدافعون عن الأغنياء، وعن الاستغلال والاضطهاد على النقيض وبشكل صريح من تعاليم المسيحية. إن الأساقفة والقساوسة لا يتصرفون كخدم لتعاليم المسيح، بل كخدم للعجل الذهبي وللسوط الذي يضرب الفقراء والعزل. كذلك يعرف كل امرئ من خلال التجربة، مدى مضايقة القساوسة أنفسهم للشعب العامل الفقير من خلال سلب العامل آخر قرش لديه عند إجراء مراسيم الزواج والتعميد والدفن. وكم من مرة حصل وأن قام قسيس تمت دعوته إلى إجراء مراسم الدفن بعدم التحرك من البيت قبل قيام المرء مسبقاً بوضع عدد معلوم

مـن الروبـلات عـلى المائـدة، ليغـادر العامـل بسرعـة وقـد تملكـه اليـأس مـن أجـل بيـع أو رهـن آخـر قطعـة أثـاث في الحجـرة بغيـة شراء السـلوى الدينيـة لأعـزاءه!

ولكـن هنـاك أيضـاً رجـال ديـن أخـرون. هنـاك أيضـاً أولئـك الذيـن يمتلـؤون طيبـة وشـفقة ولا ينظـرون إلى الأجـر ومسـتعدون هـم أنفسـهم للمسـاعدة أينـما رأوا العـوز والفاقـة. إلا أن الجميـع يعـترف أن هـؤلاء هـم الاسـتثناء، هـم الغربـان البيـض. فغالبيـة القساوسـة يقابلـون الأغنيـاء وذوي النفـوذ بوجه بشـوش وانحنـاءات خانعـة تغفـر بصمـت لهـم كل ظلـم وكل فجـور. إلا أنـه في مـا يتعلـق بالعـمال، فليـس لـدى رجـال الديـن غالبـاً سـوى معاملـة قاسـية ومواعـظ صارمـة مقابـل "تطاولهـم"، إذا مـا حاولـوا حمايـة أنفسـهم بعـض الـشيء مـن اسـتغلال الرأسـماليين السـافر. هـذا التناقـض الصريـح بـين سـلوك رجـال الديـن والتعاليـم المسـيحية لا بـد وأنـه يثـير التسـاؤل لـدى كل عامـل مُفكـر، بحيـث أنـه يطـرح السـؤال بشـكل لا إرادي: تُـرى مـا السـبب أن الطبقـة العاملـة في سـياق سـعيها نحـو التحـرر لا تجـد في خـدم الكنيسـة أصدقـاءً بـل أعـداءً؟ تُـرى مـا السـبب أن الكنيسـة اليـوم ليسـت مـلاذ المُسـتغَلين والمضطهديـن، بـل حصنـاً وملجـأً للـثروة والاسـتغلال الدمـوي؟ ولـكي نفهـم هـذه الظاهـرة العجيبـة، عـلى المـرء، عـلى الأقـل، أن يتعـرف قليـلاً عـلى تاريـخ الكنيسـة وأن يتأمـل كيـف كانـت الكنيسـة ذات يـوم وكيـف أصبحـت مـع مـرور الزمـن.

2

تتمثل إحدى أقسى التهم التي يوجهها رجال الدين إلى الاشتراكيين الديمقراطيين، في أن هؤلاء يريدون إدخال "المشاعية"، أي المُلكية المشتركة لكل حطام الدنيا. وسيكون من المشوق هنا بشكل خاص ملاحظة أن قساوسة اليوم، عندما يحرضون ضد "المشاعية "، هم في الواقع يحرضون ضد رسل المسيحية الأوائل. فهؤلاء بالذات كانوا شيوعيين متحمسين.

نشأت الديانة المسيحية كما هو معروف، في روما القديمة في زمن الانهيار الأكبر لهذه الإمبراطورية التي كانت ذات يوم قوية وعظيمة وامتدت حينها لتشمل جميع أرجاء إيطاليا الحالية وإسبانيا وجزءاً من فرنسا وجزءاً من تركيا وفلسطين وبلداناً أخرى مختلفة. أما الظروف التي كانت سائدة في روما وقت ميلاد المسيح، فقد كانت شبيهة جداً بتلك السائدة في روسيا اليوم؛ فمن جهة ثمة حفنة من الأغنياء تعيش في دعة رفاهية ووفرة لا حصر لهما، ومن جهة أخرى ثمة حشود جماهيرية هائلة تهلك في عوز مخيف. وفوق هذا وذاك حكومة مستبدة تقوم على العنف وعلى انحلال أخلاقي كامل وتمارس ضغطاً لا يوصف وتسلب السكان آخر ما تبقى لديهم. انهيار في أرجاء الإمبراطورية كافة، أعداء خارجيون يهددون الدولة من جهات مختلفة، جنود يمارسون العنف بشكل جائر ضد السكان المساكين، قرى قاحلة أقفرت من سكانها وحقول لا تكفي خصوبتها عن التراجع. في حين تكتظ المدينة، أي العاصمة روما، بشعب مهزول منهك، يهز عروش الأغنياء وقد تملكته الكراهية، بشعب بلا قوت ولا مأوى ولا كساء ولا أمل ولا استشراف لأي سبيل يفضي خارج هذا البؤس.

ثمة اختلاف كبير بين [إمبراطورية] روما المضمحلة وروسيا القيصرية في جانب واحد فقط ؛ ففي عصر روما لم تكن هناك رأسمالية، أي أنّه لم تكن هناك مصانع تنتج سلعاً للبيع من خلال عمل يقوم به أجراء. سادت العبودية في هذا العصر وكانت العائلات النبيلة والأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال تلبي احتياجاتها من خلال عمل العبيد الذين استجلبوهم معهم في أعقاب الحروب. وتدريجياً استملك الأغنياء تقريباً جميع الأطيان في إيطاليا من خلال سلبهم الأرض للفلاحين الرومانيين. ولأن الغلة يتم الحصول عليها مجاناً كضريبة من المقاطعات التي تم إخضاعها، حولوا أملاكهم الخاصة إلى مزارع وحدائق للخضار وكروم عنب ومراعٍ ومتنزهات تابعة لقصورهم يفلحها جيش جرار من العبيد الذين يتم سوقهم إلى العمل بعصا الرقيب عليهم. ومع سلبهم أرضهم وقوتهم، تدفق سكان الأرياف من جميع أنحاء الإقليم إلى العاصمة روما. ولم يكن هناك من عملٍ ينتظرهم في العاصمة ، إذ أن جميع الحرف اليدوية كان يمارسها العبيد. وهكذا تجمع في روما تدريجياً حشد هائل من أناس لا يملكون شيئاً – طبقة من العمال الكادحين لم تكن قادرة حتى على بيع قوة عملها، لأن لا أحد بحاجة إليها. هذه الطبقة الكادحة إذاً والتي تدفقت من الأرياف، لم يتم استيعابها كما هو الحال اليوم في المدن من قبل المصانع، بل كان عليها أن تقع فريسة العوز والفقر. ولأن مثل هذه الجماهير التي امتلأت بها ضواحي وشوارع وميادين روما مثلت خطراً دائماً على الحكومة والأغنياء، كان على الحكومة بشكل أو بآخر أن تخفف من معاناتهم. فبين الحين والآخر كان يتم توزيع حبوب من مخازن الحكومة أو حتى مواد غذائية على الطبقة الكادحة من أجل تخفيف تذمرها المنذر شراً أحياناً. كما تمّ تنظيم عروض السيرك مجاناً لشغل أفكار

ومشـاعر الشـعب المهتاجـة. وهكـذا كان واقـع الأمـر، عاشـت الطبقـة الكادحـة الضخمـة بأكملهـا في رومـا مـن التسـول، خلافـاً لمـا هـو الحـال عليـه اليـوم، حيـث تحافـظ الطبقـة الكادحـة، مـن خـلال عملهـا، عـلى بقـاء المجتمـع ككل قائمـاً.

إلا أن كافـة أشـكال العمـل مـن أجـل المجتمـع في رومـا، في عصرهـا، كان مـن نصيـب العبيـد التعسـاء الذيـن كانـوا يُعاملـون معاملـة الـدواب. وفي خضـم محيـط العـوز والمهانـة الإنسـانية كانـت هنـاك جزيـرة تشـكلها حفنـة قليلـة مـن أصحـاب النفـوذ الرومانيـين تقيـم حفـلات صاخبـة وممعنـة في الإسراف والفسـوق. لم يكـن هنـاك مـن منفـذٍ للخـلاص من هـذه الظـروف الاجتماعية الفظيعـة. صحيـح أن الطبقـة الكادحـة كانـت تتذمـر وتتوعـد بـين الحـين والآخـر بالتمـرد، إلا أن طبقـة الشـحاذين الذيـن بقـوا بـلا عمـل ويقتاتـون مـن فتـات موائـد الأغنيـاء والدولـة لم تسـتطع إقامـة نظـام اجتماعـي جديـد. في حـين أن تلـك الطبقـة مـن الشـعب التـي حافظـت مـن خـلال عملهـا عـلى المجتمـع ككل قائمـاً، ألا وهـم العبيـد، كانـوا مهانـين ومشـتتين بشـكل كبـير ويرزحـون تحـت عـبء النـير، كانـوا بعيديـن كل البعـد عـن المجتمـع، معزولـين عنـه، كـما تُعـزل حاليـا دواب العمـل عـن البـشر، وبالتـالي كانـوا أضعـف مـن أن يكونـوا قادريـن عـلى القيـام بعمليـة إصـلاح للمجتمـع ككل. صحيـح أن العبيـد ثـاروا بـين الحـين والآخـر عـلى أسـيادهم، وحاولـوا تخليـص أنفسـهم مـن النـير بالحديـد والنـار، إلا أن الجيـش الرومـاني قمـع تمرداتهـم في النهايـة وصلبهـم بـالآلاف وأمعـن فيهـم ذبحـاً.

في ظـل هـذه الظـروف الفظيعـة للمجتمـع المنحـل، حيـث لا مخـرج يمكـن اسـتشرافه ولا أمـل للجماهـير الحاشـدة بمصـير أفضـل ، بـدأ التعسـاء في الأرض بالبحـث عـن هـذا الأمـل في السـماء. لقـد ظهـرت الديانـة المسـيحية للمحتقريـن والبؤسـاء

كطوق نجاة، كعزاء وفرج ولتصبح منذ اللحظة الأولى ديانة الطبقة الرومانية الكادحة. ووفقاً للوضع المادي لهذه الطبقة من الشعب، بدأ المسيحيون الأوائل بالدعوة إلى الملكية المشتركة – المشاعية -. لم يكن بالطبع لدى الشعب وسيلة للعيش، فقد كان يهلك فقراً. لذلك دعا الدين الذي يدافع عن هذا الشعب الأغنياء أن يشاركوا الفقراء وأن الثروات هي ملك للجميع وليس لحفنة من ذوي الامتيازات وأن تسود المساواة بين الناس. إلا أن هذه لم تكن مطالب، كما يطرحها الاشتراكيون الديمقراطيون اليوم، ومفادها أن الأدوات ووسائل الإنتاج عموماً عليها أن تعود إلى الجميع بشكل مشاعي، حتى يستطيع الجميع العمل معاً والعيش من عمل أيديهم.

وكما سبق لنا ورأينا، لم يكن الكادحون في ذلك الوقت يعيشون من عملهم، بل من صدقات الحكومة. لذلك طرح المسيحيون مطلب الملكية المشتركة، ليس من ناحية وسائل العمل، بل في ما يتعلق بوسائل الحياة، أي أنهم لم يُطالبوا بأن تكون الأراضي والورش وأدوات العمل، بشكل عام، ملكاً جماعياً، بل أن يتشارك الجميع في المسكن والملبس والأكل وما شابه ذلك من أشياء جاهزة يستخدمها الإنسان يومياً. لم يشغل المسيحيّون المشاعيّون بالتّساؤل حول مصدر هذه الثّروات، إذ أن العمل بقي من شأن العبيد؛ واقتصرت مطالب الجماعة المسيحية على أن يقوم أولئك الذين يمتلكون ثروات بتسليمها عند اعتناق الديانة المسيحية إلى الملكية العامة وأن يعيش الجميع من هذه الثروات في إخاء ومساواة.

وعلى هذا النحو أيضاً بنيت الجماعات المسيحية الأولى. "بالنسبة لهؤلاء الناس" – هكذا وصف ذلك أحد المعاصرين – "لم تعنِ الثروة شيئاً، في المقابل يمجدون كثيراً الملكية العامة وليس هناك بينهم من كان أكثر غنى من الآخرين. كانوا

ملتزمين بمبدأ أن كل من يريد الانضمام إلى طائفتهم عليه تسليم ملكه إلى الملكية العامة، ولذلك لا يجد المرء لديهم لا عوزاً ولا فائضاً، فالجميع يملكون معاً كل شيء كالأخوة ... فهم لا يعيشون فرادى في مدينة ما، بل يملكون في كل مدينة بيوتهم الخاصة. وعندما يأتي إليهم من الغربة أناس من ملتهم، يقومون باقتسام ملكيتهم معهم، ويستطيع هؤلاء الانتفاع بها، إضافة إلى تلك خاصتهم. هؤلاء الناس ضيوف عند بعضهم البعض، بالرغم من أنه لم يسبق لهم وأن تقابلوا أبداً. كما أنّهم يتعاملون مع بضعهم البعض كما ولو كانوا طوال حياتهم أصدقاء. وعندما يجوبون البلاد لا يحملون معهم سوى سلاح ضد اللصوص. لديهم في كل مدينة خادم يقوم بتوزيع الملابس والمواد الغذائية على القادمين ... لا يمارسون التجارة بين بعضهم البعض، ولكن عندما يقوم أحدهم بإعطاء الآخر شيئاً ما يحتاجه، يحصل في المقابل على ما يحتاجه هو نفسه. وعندما يتمكن أحدهم من تقديم شيء ما في المقابل، حينئذ يستطيع، وبلا أدنى حرج، أن يطلب من أي واحد منهم ما يريد."

نقرأ في سفر أعمال الرسل (الإصحاح الرابع، آيات 32، 34، 35) أيضاً مثل هذا الوصف للطائفة المسيحية الأولى في القدس: "وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد و نفس واحدة و لم يكن أحد يقول إن شيئا من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركا وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع ونعمة عظيمة كانت على جميعهم، إذ لم يكن فيهم أحد محتاجا لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها و يأتون بأثمان المبيعات. ويضعونها عند أرجل الرسل فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج".

كذلك يكتب مؤرخ ألماني اسمه فوجل عام 1780 عن المسيحيين الأوائل: "كل مسيحي له الحق وفقاً للرابطة الأخوية في أملاك جميع أعضاء الطائفة بكاملها وبإمكانه وقت الحاجة أن يُطالب بأن يُشاطره الأعضاء الموسرون بما يكفي لسد حاجته. كان بإمكان كل مسيحي استخدام أملاك إخوته، والمسيحيون الذين امتلكوا، لم يكن بإمكانهم رفض طلب إخوتهم المحتاجين للاستفادة واستخدام ذات الأشياء. كان بإمكان مسيحي، على سبيل المثال، الطلب من مسيحي آخر يمتلك بيتين أو ثلاثة بيوت، أن يمنحه بيتاً، ويحتفظ المالك بداره الأصلية فقط. وبسبب مشاعية الاستخدام، استوجب الأمر اعطاء سكن لمن لا مسكن له[1]."

كانت الأصول والأموال تُجمع في صندوق مشترك ويقوم موظف تم اختياره بشكل خاص من قبل الأخوية المسيحية بتوزيع الأملاك المشتركة على الجميع.ولم يقف الأمر عند هذا الحد. فقد مُورس الاستخدام المشترك إلى حد أن الجماعات المسيحية الأولى كانت تتناول الطعام اليومي على موائد مشتركة، كما يصف ذلك تاريخ الرسل. وواقع الأمر أن الحياة العائلية للمسيحيين الأوائل دُمرت نتيجة لذلك وباتت جميع الأسر المسيحية المنفردة في مدينة ما تعيش معاً كعائلة كبيرة.

1 يعقوب ليون هارد فوجل: "آثار العصور القديمة للمسيحيين الأوائل والأكثر قدماً" . -
Jakob Leonhard Vogel: "Altertümer der ersten und ältesten Christen, Hamburg 1780 S. 47 f."

وحري في الختام إضافة أن ما يحاول بعض القساوسة عزوه إلى الاشتراكيين الديمقراطيين، حُمقاً أو خباثة، أي الرغبة في تأسيس مشاعية نسائية، وهو بالطبع ما لا يخطر ببال الاشتراكيين الديمقراطيين حتى في أحلامهم، كونهم يعتبرون ذلك تشويهاً شنيعاً وبهيمياً للعلاقة الزوجية، تم فعلاً ممارسته جزئياً من قبل المسيحيين الأوائل. ففكرة الملكية العامة، المشاعية، بغض النظر عن كونها تثير الاشمئزاز والقرف لدى رجال الدين المعاصرين، كانت محببة لدى المسيحيين الأوائل إلى درجة أن بعض الفرق، مثل الغنوصيين، المعروفين باسم الآدميين، الذين أعلنوا في القرن الثاني بعد الميلاد أن جميع الرجال والنساء عليهم ممارسة الجنس الجماعي، دون تمييز، عاشوا أيضاً وفق هذه التعاليم.

3

وهكذا كان المسيحيون في القرنين الأول والثاني مؤمنين متحمسين للمشاعية. إلا أن مشاعية استهلاك المنتجات الجاهزة هذه والتي لا تقوم على مشاعية العمل، لم تكن بأي حال من الأحوال قادرة على تحسين وضع المجتمع ، ولم تكن قادرة على إزالة عدم المساواة بين الناس ولا الفجوة بين الأغنياء والشعب الفقير. ولأن وسائل الإنتاج، والأرض بشكل أساسي، بقيت ملكية خاصة، ولأن العمل من أجل المجتمع ظل قائماً على العبودية، استمر إذاً تدفق الثروات المكتسبة من خلال العمل إلى قلة من الملاكين، في حين بقي الشعب مسلوباً من المال اللازم للمعيشة، ليحصل عليه فقط كمنة من الأغنياء لجيش من المتسولين.

وحين يمتلك أولئك، وهم حفنة صغيرة، حصرياً، جميع الأراضي والغابات والمراعي، جميع القطعان والبنية الاقتصادية، جميع الورش ووسائل ومواد الإنتاج، في حين أن الآخرين – الغالبية العظمى من الشعب – لا تمتلك شيئاً يُمكِّنها من العمل ، لا يمكن في مثل هذه الظروف أن تقوم مساواة بين الناس، وعليه لا بد من وجود أغنياء وفقراء، وجود فيض وفقر. لنفترض على سبيل المثال أن هؤلاء الملاكين الأغنياء اليوم، الذين ذابت أفئدتهم جراء التعاليم المسيحية، يكرسون جميع أموالهم وثرواتهم المنقولة، من حبوب وفواكه

وملابس وماشية ... إلخ.، من أجل الاستهلاك المشترك من قبل الشعب وتوزيعه بين جميع المحتاجين. ماذا يترتب على ذلك؟ فقط ولبعض الوقت سيختفي الفقر وسيحصل الشعب على غذائه وكسائه بشكل أو بآخر. ولكن تلك الموارد سرعان ما سيتم استهلاكها. فبعد وقت قصير جداً سرعان ما سيكون الشعب المحروم قد استهلك الثروات الموزعة ليعود ويقف من جديد خالي الوفاض، في حين أن ملاكي الأراضي وأدوات العمل يمكنهم وبمساعدة العمال -العبيد في ذلك العصر - من الاستمرار في الإنتاج كما يحلو لهم. وعليه يبقى كل شيء على ما هو عليه. ولذلك بالذات يعتبر الاشتراكيون الديمقراطيون أنفسهم اليوم شيئاً مختلفاً عن المشاعيين المسيحيين ويقولون: نحن لا نريد منة ولا صدقة، إذ أن ذلك لا يزيل عدم المساواة بين الناس. نحن لا نريد أن يتقاسم الأغنياء مع الفقراء، بل أن لا يكون هناك من حيث المبدأ أغنياء وفقراء. إلا أن ذلك سيصبح ممكناً فقط عندما يصبح مصدر كل غنى: الأرض وجميع وسائل العمل الأخرى ملكاً مشتركاً لكل الشعب العامل الذي تُنتج من أجله السلع الضرورية وفق احتياجات الجميع. إلا أن المسيحيين الأوائل أرادوا سد عجز الطبقة الكادحة الضخمة وغير العاملة من خلال اقتسام مستمر للثروات التي تُمنح من الأثرياء. ولكن ذلك أشبه بتصفية الماء من خلال غربال. ولم يتوقف الأمر عند ذلك. فالمشاعية المسيحية لم تكن غير قادرة على تغيير الظروف الاجتماعية وتحسينها

فحسب، بل لم تكن قادرة حتى على الإبقاء على ذاتها طويلاً.

فطالما لم يكن هناك في البداية سوى قلة من المؤمنين بالإنجيل الجديد، فقد شكل هؤلاء طائفة صغيرة من المتحمسين في المجتمع الروماني، وكان تحصيل الأملاك من أجل التوزيع المشترك وتناول وجبات الطعام معاً وغالباً أيضاً السكن تحت سقف مشترك ممكناً. ولكن بازدياد عدد المسيحيين عبر أرجاء الإمبراطورية كافة، أضحت حياة المؤمنين المشتركة أكثر صعوبة. فعادة تناول الوجبات اليومية بشكل مشترك ما لبثت أن تلاشت كلياً وفي ذات الوقت اتخذ أيضاً تكريس الملك الخاص من أجل الاستهلاك المشترك طابعاً آخر. ولأن المسيحيين وقتها لم يعودوا يعيشون في رحاب عائلة مشتركة، إذ كان على كل فرد الاهتمام بنفسه، لم تعد كامل الملكية تُمنح من أجل الاستهلاك المشترك من قبل الأخوة المسيحيين، بل يمنح فقط ما تبقى منها بعد أن يتم تسديد احتياجات العائلة. فالذي يمنح من قبل الأثرياء للجماعة المسيحية لم يعد مشاركة في الحياة المشاعية، بل كان قرباناً من أجل الأخوة لغير الموسرين، كان إحساناً، كان صدقة. ولكن حين كفّ المسيحيون الأغنياء عن استخدام المُلك المشترك وقاموا بتقديم جزء فقط للآخرين، خرج هذا الجزء المُضحى به من أجل الأخوة الفقراء متبايناً، صغيراً أو كبيراً، حسب رغبة وطبيعة كل مؤمن على انفراد.

وهكـذا نشـأ تدريجيـاً في كنـف الجماعـة، ذات التبايـن بـين فقـير وغنـي كـما هـو في سـائر المجتمـع الرومـاني، والـذي عمـد المسـيحيون الأوائـل إلى محاربتـه. فقـط المسـيحيون الفقـراء، الطبقـة الكادحـة، اسـتمروا في الحصـول عـلى وجبـات طعـام مشـتركة مـن طائفتهـم، إلا أن الأغنيـاء تحاشـوا هـذه الموائـد المشـتركة وقدمـوا بعضـاً مـن فيـض مـا لديهـم قربانـاً لهـا. وهكـذا إذاً تكـررت حقـاً لـدى المسـيحيين ذات الظـروف التـي سـادت في المجتمـع الرومـاني: عـاش الشـعب عـلى الصدقـات وأقليـة مـن الأغنيـاء قامـت بتقديمهـا. ضـد هـذا التصـدع الناشـئ عـن عـدم المسـاواة الاجتماعيـة داخـل الطائفـة المسـيحية كافـح آبـاء الكنيسـة طويـلاً بكلـمات حـادة، حيـث انتقـدوا الأغنيـاء بقسـوة ودعوهـم باسـتمرار إلى العـودة إلى مشـاعية الرسـل الأوائـل.

وقـد هـدد القديـس باسـيليوس الأغنيـاء في القـرن الرابـع بعـد الميـلاد عـلى سـبيل المثـال عـلى النحـو التـالي: "ويـل لكـم أيهـا التعسـاء، كيـف سـتبرؤون ذمتكـم أمـام قـاضي السـماء؟ أنتـم تجيبونـني: مـا هـو الذنـب الـذي اقترفنـاه إذا مـا احتفظنـا فقـط بمـا يخصنـا؟ ولكنـي أسـألكم: كيـف أتاكـم هـذا الـذي تسـمونه ملككـم؟ ممـن حصلتـم عليـه؟ ... كيـف يغتنـي الأغنيـاء إذا لم يكـن مـن خـلال الاسـتحواذ عـلى مـا يعـود للجميـع. لـو أن كل فـرد لم يمتلـك أكـثر مـما يحتـاج للـرزق، تـاركاً الباقـي للآخريـن،

لما كان هناك لا فقراء ولا أغنياء[2]."

القديس يوهانس كريسوستوموس، بطريرك القسطنطينية، المولود عام 347 في أنطاكيا والمتوفى عام 407 في المنفى في أرمينيا، كان أكثر إلحاحا في هدايته المسيحيين إلى المشاعية الأصلية للرسل. ففي موعظته الحادية عشرة حول تاريخ الرسل، قال هذا الواعظ المشهور:

"نعمة كبيرة كانت لديهم (الرسل) جميعاً ولم يتواجد بينهم من عانى من العوز والفقر. ويعود السبب في ذلك إلى أن أحداً لم يقل عن ملكيته الخاصة أنها تعود له، بل أن كل شيء لديهم كان يعود إلى الجميع كافة. نعمة كبيرة كانت لديهم، لأن لا أحد عانى من العوز، أي لأنهم أعطوا بسخاء بحيث لم يبقَ أحدٌ فقيراً. فلم يمنحوا جزءاً فقط واحتفظوا بالجزء الباقي لأنفسهم، بل اعتبروا ما منحوه ليس ملكاً لهم. أزالوا عدم المساواة وعاشوا في رخاء كبير وقاموا بذلك بالطريقة الأكثر جدارة بالفخر. لم يجرؤوا على وضع العطية في أيدي المحتاجين، ولم يقدموها جراء مجاملة مستكبرة، بل ألقوا بها إلى جانب أقدام الرسل جاعلين منهم

2 قارن "دار كتب آباء الكنيسة". هذا الاقتباس والاقتباسات التالية المتعلقة بآباء الكنيسة تم ترجمتها عن البولونية، لأن الأسلوب القديم للترجمة الألمانية -في حال كانت متوفرة- تعبر بشكل أقل عن المضمون الاشتراكي النقدي مقارنة بالنص البولندي الذي استخدمته روزا لوكسورغ.
Vgl. "Bibliothek der Kirchenväter" Band 47, München 1925,5. Predigt, "Die Habsucht", S. 237

أسياداً وموزعين لعطاياهم. فما كان المرء بحاجته، تم أخذه من مخازن الطائفة ومن المُلك الخاص للأفراد. ومن خلال ذلك كان من الممكن الحيلولة دون وقوع المتبرعين في براثن الاستكبار."

"لو أمكننا اليوم التصرف هكذا، لأمكننا العيش بسعادة أكبر، أغنياء وفقراء على حد سواء، ولن يحصل الفقراء من خلال ذلك على سعادة أكثر من الأغنياء، ليس فقط لأن المانحين أنفسهم لم يُصبحوا فقراء، بل أيضاً لأنّهم يجعلون من الفقراء أغنياء."

"لنتصور التالي: لو قدَّم الجميع ما يملكون إلى الملكية العامة. وهنا ليس حرياً بأحد القلق، فقيراً كان أو غنياً. ما رأيكم، كم من المال يمكن جمعه بهذه الطريقة؟ أعتقد، إذ لا يمكن بالتأكيد تحديد ذلك، أنه، إذا ما قدم كل فرد كل ماله، كل أرضه، كل ماشيته، كل بيوته (استثني هنا العبيد، إذ أن المسيحيين الأوائل بالتأكيد لم يمتلكوا أيا منهم، لأنهم ربما أعتقوهم)، حينئذ سيتم تجميع بالتأكيد ما مجموعه مليون جنيه ذهبي، عفواً، بالتأكيد أيضاً ضعفا أو ثلاثة أضعاف ذلك. هلا قلتم لي كم عدد الناس الذين يعيشون في مدينتنا (القسطنطينية)؟ كم من المسيحيين؟ ألا يصل عددهم إلى مائة ألف؟ وكم من الوثنيين واليهود! كم من آلاف الجنيهات الذهبية عليها أن تتجمع! وكم من الفقراء لدينا؟ لا أعتقد أنهم أكثر من خمسين ألفاً. كم سيحتاج الأمر لإطعامهم؟ في حال تناولوا الوجبة

على مائدة مشتركة، حينئذ لن تكون الكلفة كبيرة. ماذا علينا إذاً أن نعمل بثروتنا الهائلة؟ هل نعتقد أنها ستُستنفذ يوماً ما؟ ألن تنزل علينا البركة الإلهية ضعف ذلك ألف مرة؟ ألن نجعل من الأرض جنة؟ فإذا كان ذلك قد تحقق بشكل رائع لدى ثلاثة أو خمسة آلاف (المسيحيين الأوائل) ولم يُعانِ أحدٌ منهم من فاقة، فكم من أضعاف ذلك سيتحقق لدى هذا العدد الكبير من الناس؟ ألن يقدم كل ملتحق جديد شيئاً إلى ذلك؟"

"إن تشتيت الثروات يتسبب في نفقات أكبر وبالتالي في الفقر. لنأخذ بيتاً برجل وامرأة وعشرة أطفال. هي تشتغل بالنسج، في حين يبحث هو عن رزقه في السوق. هل سيحتاجون أكثر إذا عاشوا معاً في بيت أم إذا عاش كل واحد منهم بشكل مستقل؟ طبعاً في حال عاشوا بشكل منفصل. وفي حال ذهب الأبناء العشرة في اتجاهات مختلفة، يحتاجون إلى عشرة بيوت وعشر موائد وعشرة خدم وكل شيء آخر في ظل الظروف ذاتها. كيف يمكن التعامل مع أعداد العبيد؟ هل يُطعمهم المرء جميعاً على مائدة واحدة من أجل توفير النفقات؟ يؤدي التفتت عادة إلى الإهدار، والوحدة إلى توفير الممتلكات. هكذا يعيش المرء اليوم في الأديرة وهكذا عاش أولئك المؤمنون. من مات في حينه جوعاً؟ من لم يتم إشباعه بشكل وافر؟ ومع ذلك يخشى الناس هذا النظام أكثر من القفز إلى

المجهول. دعونا نحاول ونبدأ العمل بجسارة! كيف سيكون حجم البركة حينئذ! فإذا كان في السابق، عندما كان عدد المؤمنين صغيراً جداً، بالكاد ثلاثة إلى خمسة آلاف، حين كان العالم بأكمله معادياً لنا، حين لم يكن هناك عزاء في أي مكان، وثبت أسلافنا بِجَلَد، كم من الأمان الإضافي نحتاج اليوم، خاصة وأنه بنعمة من الرب هناك مؤمنون في كل مكان! من كان سيريد في حينه أن يبقى وثنياً؟ أعتقد لا أحد. كان سيمكننا جذب الجميع وكسبهم إلى جانبنا.[3]"

لم تُكلل مناشدة يوهانس كريسوستوموس الملحة جداً ولا مواعظه الحماسية بالنجاح. لم تجرِ محاولة لإدخال المشاعية في القسطنطينية أو في أي مكان آخر. فمع انتشار المسيحية، التي كانت قد أصبحت الديانة السائدة منذ القرن الرابع في روما، لم يعد المؤمنون إلى نموذج الرسل الأوائل، إلى الملكية المشتركة، بل ابتعدوا عنها أكثر فأكثر. وازدادت هوة عدم المساواة اتساعاً بين الأغنياء والفقراء ضمن مجتمع المؤمنين.

وحتى في القرن السادس، أي بعد مرور 500 عاماً على ميلاد المسيح، نسمع نداء غريغوري الأول: "لا يكفي أن لا يُسلب الآخرون ما يملكون، أنتم لستم بلا ذنب حين تحتفظون بأملاك خلقها الرب للجميع. من لا

3 لا يوجد، في حدود علمي، ترجمة ألمانية لهذه الموعظة. يوجد الأصل اليوناني والترجمة اللاتينية
"Patrologiae Cursus Completus..." Excudebatur et venitapud J.-P. Migne, Paris 1862 Spalte 93 ff.

يُعطي الآخرين ما يملكه هو، هو لص وقاتل، لأنه إذا احتفظ لنفسه بما يُعيل رزق الفقراء، يُمكن القول أنه يقتل يوماً بعد يوم ذلك العدد الذي يستطيع العيش من فيض ما يملك. فإذا ما شاطرنا أولئك الذين يحيون في عوز، فنحن لا نعطيهم ما يعود لنا، بل ما يعود لهم. هذا ليس فعل شفقة، بل سداد دين.[4]"

ولكن هذه النداءات ذهبت أدراج الرياح نتيجة لقسوة قلوب المسيحيين السابقين الذين كانوا بالتأكيد أكثر استعداداً لتقبل مواعظ آباء الكنيسة من المسيحيين الحاليين. ولكن هذه ليست المرّة الأولى في تاريخ البشرية التي تثبت فيها الظروف الاقتصادية أنها أقوى من أجمل المواعظ. هذه المشاعية، هذه الجماعة الاستهلاكية التي بشر بها المسيحيون الأوائل لم تكن قادرة على البقاء دون عمل مشترك يقوم به جميع السكان على أرض مشتركة وفي ورش مشتركة. ولكن القيام بمثل هذا العمل المشترك مصحوباً بوسائل إنتاج مشتركة، كان في ذلك الوقت غير ممكنٍ، لأن العمل كما أسلفنا كان من نصيب العبيد، الذين عاشوا على هامش المجتمع، ولم يكن شغل الناس الأحرار. ومنذ البداية لم تقم المسيحية بأي شيء ولم تستطع أيضاً القضاء على اللامساواة في العمل وامتلاك موارد الإنتاج. وتبعاً لذلك كانت محاولاتها للقضاء

4 قارن دار كتب آباء الكنيسة. "كتاب نظام الرعاوية".
Vgl. Bibliothek der Kirchenväter, Zweite Reihe, Band 4, München 1933. "Buch der Pastoralregel", Dritter Teil, Kapitel XXI, S. 195 f.

عـلى التوزيـع المتبايـن للـثروات ميؤوسـا منهـا. ولذلك كان عـلى أصـوات آبـاء الكنيسـة الذيـن هـدوا إلى المشـاعية أن تبقـى صوتـاً يـصرخ في البريـة. ولكـن لم يمـر وقـت طويـل، حتـى بـدأت هـذه الأصـوات تنـدر أكـثر فأكـثر إلى أن صمتـت. لقـد توقـف آبـاء الكنيسـة أنفسـهم عـن الدعـوة إلى التضافـر وتوزيـع الـثروات، إذ أنـه مـع نمـو مجتمـع المؤمنـين تغـيرت الكنيسـة أيضـاً بشـكل جـذري.

4

في البداية، حين كانت أعداد المؤمنين قليلة، لم يكن هناك رجال دين بالمعنى الفعلي. فالمؤمنون في كل مدينة تجمعوا وشكلوا طائفة دينية واختاروا كل مرة أخاً من بين صفوفهم ليُسيِّر القداديس والشعائر الدينية. فكل مؤمن كان بإمكانه في حينها أن يصبح مطراناً أو قساً، إذ كانت هذه مناصب محددة زمنياً، لا تمنح سلطة سوى تلك التي توفرها لها الكنيسة طوعاً ، وكانت غير مدفوعة الأجر كلياً. إلا أنه بذات المقدار الذي ازداد فيه عدد المؤمنين واستمرت الطوائف في الزيادة والرخاء، تحولت إدارة شؤون الطائفة وإقامة المراسم الصلواتية إلى عمل يتطلب وقتاً طويلاً وتفرغاً كاملاً. ولأن بعض الأخوة المسيحيين لم يعد بإمكانهم القيام بهذه المهام، جنباً إلى جنب مع مهنهم الخاصة، بدأ المرء في اختيار أعضاء من الطائفة من أجل شغل مناصب دينية بتفرغ كامل. وهكذا بدأ مثل هؤلاء الموظفين بتكريس أنفسهم لشؤون الكنيسة والطائفة لقاء أجر يكفي معيشتهم. وهكذا نشأت في نطاق الجماعة المسيحية طبقة جديدة: من بين جمهور المؤمنين نشأت طبقة موظفي الكنيسة – رجال الدين. فعوضاً عن اللامساواة بين الأغنياء والفقراء، نشأت لامساواة جديدة بين رجال الدين والشعب. وبالرغم من أنهم بداية انتخبوا من بين صفوفهم مؤمنين متساويين في الحقوق من أجل تمثيل الجماعة مؤقتاً

في سلك الكنيسة، ما لبث أن ارتقى رجال الدين إلى منزلة طائفة تسمو فوق الشعب. وكلما تزايد عدد الجماعات المسيحية القائمة في جميع مدن الإمبراطورية الرومانية، كلما ازداد إحساس المسيحيين الملاحقين من قبل الحكومة والوثنيين بالحاجة إلى رص الصفوف من أجل تنمية قوتهم. لتبدأ الجماعات المشتتة في لم شملها والاتحاد في شكل كنيسة على مستوى كامل أراضي الإمبراطورية. إلا أن ذلك لم يكن بالأساس سوى تكتل يجمع رجال الدين وليس الشعب. وفي القرن الرابع بعد الميلاد بدأ رجال الدين في الجماعات المتفرقة بعقد لقاءات منتظمة في مجامع كنسية؛ فقد انعقد المجمع الكنسي الأول في عام 325 في نيقية. وهكذا يكون قد اكتمل اندماج رجال الدين بشكل وثيق في بوتقة طبقة منفصلة عن الشعب. وفي ذات الوقت كان، بالطبع، مطارنة الجماعات الأكثر نفوذاً وغنى هم أصحاب الكلمة بين رجال الدين، ولذلك وقف مطران الجماعة المسيحية في مدينة روما على رأس المسيحية ككل، كرئيس للكنيسة، كبابا. وهكذا نشأت هرمية رجال الدين التي انفصلت تدريجياً عن الشعب وعنه ترفعت أكثر فأكثر.

وفي ذات الوقت تغيرت العلاقة الاقتصادية بين الشعب ورجال الدين. فحين كان في السابق يتم اعتبار كل شيء يقوم أعضاء الكنيسة الأغنياء بتقديمه قرباناً للطائفة اعتماداً مالياً للشعب الفقير، بدأ المرء الآن بتحويل

جزء آخذ في الكبر من أجل تغطية أجور رجال الدين واحتياجات الكنيسة. وحين أُعلن في بداية القرن الرابع في روما أن المسيحية أصبحت هي الديانة السائدة، أي الديانة الوحيدة المعترف بها والمدعومة من قبل الدولة وتوقفت ملاحقة المسيحيين، لم تعد الصلوات تعقد في كهوف تحت الأرض أو حُجر متواضعة، بل بدأ المرء ببناء كنائس تزداد بهاء، الأمر الذي أدى إلى تخفيض الاعتماد المالي المخصص للفقراء أكثر فأكثر. فسابقاً في القرن الخامس تم تقسيم عائدات الكنيسة إلى أربعة أجزاء متساوية: جزء يحصل عليه الأسقف وجزء يحصل عليه باقي رجال الدين الأقل مرتبة وجزء مخصص لبناء وصيانة الكنائس وربع فقط مخصص لمساعدة فقراء الشعب. وهكذا يبقى من نصيب جميع فقراء الشعب المسيحي فقط ما يعادل ذاك المقدار الذي يحصل عليه الأسقف وحده. ومع مُضي الوقت كف المرء عن رصد جزء معين للفقراء. إذ كلما ازداد غنى وسطوة رجال الدين، كلما فقد جمهور المؤمنين أكثر فأكثر كل سيطرة على أملاك الكنيسة وإيراداتها. فقد عمد الأساقفة إلى توزيع المقدار الذي يحلو لهم على الفقراء. والشعب سبق له آنذاك وأن حصل على صدقات من رجال دينه.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد. فإذا كانت في البداية جميع عطايا المؤمنين للعامة المسيحية طوعية، بدأ رجال الدين مع مضي الوقت، خاصة منذ أن أصبح

الديـن ديانـة الدولـة، بالمطالبـة بتقديمهـا قهـراً، وذلـك مـن جميـع المؤمنـين، موسريـن أو غـير موسريـن. وفي القـرن السـادس اسـتحدث رجـال الديـن ضريبـة كنسـية خاصـة: العُـشر (أي عُـشر سـنابل القمـح، البهيمـة العاشرة ... إلـخ). وقـد شـكلت هـذه الضريبـة عبئـاً جديـداً عـلى عاتـق الشـعب وأصبحـت لاحقـاً في القـرون الوسـطى سـوط الـرب في وجـه الفلاحـين الفقـراء المعتصريـن مـن خـلال أعـمال السـخرة. وقـد تـم فـرض العُـشر عـلى كل أنملـة مـن الأرض، عـلى كل مِلـك. وكان عـلى الفـلاح الـذي يعمـل في السـخرة أن يُسـدد العـشر للسـادة بعـرق جبينه الدامـي. ولم يقتـصر الأمـر عـلى أن الشـعب الفقـير لم يعـد يحصـل عـلى مسـاعدة ودعـم مـن الكنيسـة فحسـب، بل الأنـكى مـن ذلـك، أن الكنيسـة ربطـت نفسـها بالمسـتغلين والمسـترقين الآخريـن للشـعب: بالأمـراء والنبـلاء المـلاك والمرابـين.

وفي القـرون الوسـطى حـين أصبـح الشـعب العامـل أكـثر عـوزاً وفقـراً مـن خـلال أعـمال السـخرة، اغتنـى رجـال الديـن أكـثر فأكـثر. إذ عوضـاً عـن الإيـرادات الـواردة مـن الأعشـار وضرائـب ومدفوعـات أخـرى، حصلـت الكنيسـة في ذلـك الوقـت عـلى هبـات ووصايـا مـيراث مـن أغنيـاء ورعـين أو مـن فاسـقين أغنيـاء مـن كلا الجنسـين، ممـن أرادوا مـن خـلال إرث وافـر مقـدم إلى الكنيسـة في آخـر أيامهـم افتـداء خطاياهـم الحياتيـة. أمـوال وبيـوت وقـرى بأكملهـا، بمـا في ذلـك عـمال السـخرة، سـندات ديـن

وعائدات من الأراضي، وُهبت وورِّثت للكنيسة. وهكذا تجمعت بين أيدي رجال الدين ثروات هائلة. ولم يعد رجال الدين يقومون على إدارة أملاك الكنيسة الموكلين بها، أي أملاك طائفة المؤمنين أو على الأقل الأخوة الفقراء. وفي القرن الثاني عشر أعلن رجال الدين بشكل صريح، وكأنهم يعرضون قانونا مأخوذا عن الكتاب المقدس، أن جميع ثروات الكنيسة ليست ملكاً لطائفة المؤمنين، بل ملكاً خاصاً لرجال الدين وخاصة لرئيسهم، البابا. وهكذا أصبحت المناصب الدينية الطريق الأفضل إلى الحصول على إيرادات وثروات كبيرة؛ فقد أغدق كل رجل دين حظي بأملاك الكنيسة وأملاكه الخاصة على أقرباءه وأطفاله وأحفاده بسخاء. ولأن أملاك الكنيسة نتيجة لذلك تراجعت بشكل كبير وتبددت بين أيدي عائلات رجال الدين، أمر البابوات، حرصاً منهم على المحافظة على الثروة ككل، ومن خلال إعلان أنفسهم أصحاب الملك الأعلى لكامل أملاك الكنيسة، رجال الدين بالتبتل، بمعنى الامتناع عن الزواج، وذلك لمنع تناقص الملك من خلال التوريث. وقد كان التبتل قد استحدث في القرن الحادي عشر، إلا أنه تم العمل به، نتيجة لعناد القساوسة، بشكل عام فقط في نهاية القرن الثالث عشر. وحتى لا تتخلى الكنيسة عن أصغر جزء من الثروة، أصدر البابا بونيفاس الثامن عام 1227 مرسوماً يقضي بمنع أي رجل دين من تقديم هبات إلى الكائنات الحية من إيراداته دون إذن البابا.

وهكـذا راكمـت الكنيسـة في يديهـا ثـروات لا تحـصى، خاصـة مـن الأراضي. فقـد تحـول رجـال الديـن في جميـع الأقطـار المسـيحية إلى أكـبر مالـك للعقـارات. وعـادة مـا امتلكـوا ثلـث اجـمالي الأراضي في الدولـة، وأحيانـاً أكـثر.

لم يكـن تسـديد العـشر مفروضـا فقـط على أطيـان الملوك والأمـراء والنبـلاء، بـل كان عـلى شـعب الأريـاف تسـديده لرجـال الديـن، عوضـاً عـن أعـمال السـخرة، بـل وعمـل أيضـاً ملايـين الفلاحـين ومئـات الآلاف مـن الحرفيـين عـلى كامـل المسـاحات الشاسـعة مـن أمـلاك الكنيسـة بشـكل مبـاشر مـن أجـل الأسـاقفة ورؤسـاء الأسـاقفة والكهـان ورؤسـاء الكنائـس والأديـرة. ومـن بـين مسـتغلي أعـمال السـخرة التـي كان عـلى الشـعب أن يقـوم بهـا، بـرزت الكنيسـة في القـرون الوسـطى، أي في عـصر الإقطـاع، كونها السـيد والمسـتغل الأقـوى. فعـلى سـبيل المثـال امتلـك رجـال الديـن في فرنسـا قبـل الثـورة الكـبرى، أي في نهايـة القـرن الثامـن عـشر، خُمـسَ مجمـل الأراضي في فرنسـا، والتـي عـادت عليهـم بدخـل سـنوي يقـارب 100 مليـون فرانك.وقـد بلغـت حصيلـة الأعشـار المتحصلـة مـن الأمـلاك الخاصـة 23 مليونـاً، اعتـاش منهـا 2800 أسـقفاً وراعـي كنيسـة أعـلى، 5600 رئيـس ديـر للرهبـان، 60000 قسـيس ومعـاون قسـيس، وفي الأديـرة 24000 راهـب و 36000 راهبـة. هـذا الجيـش الجـرار مـن رجـال الديـن المعفـى مـن الضرائـب والخدمـة العسـكرية لم يقـدم في سـنوات حدثـت فيهـا كـوارث عامـة عـلى غـرار الحـروب

وسوء المحاصيل والأوبئة، سوى "ضريبة طوعية" إلى صندوق الدولة لم تتعدَ أبداً 16 مليون فرانك.

شكل رجال الدين الميسورون جداً مع نبلاء السخرة طبقة تسود الشعب الفقير وتعتاش من دمه وعرقه. فقد كان يتم منح مناصب الكنيسة العليا، كونها مربحة جداً، إلى النبلاء ويتم الحفاظ عليها في إطار العائلات النبيلة. ولذلك أيضاً وقف رجال الدين في عهد أعمال السخرة في كل مكان إلى جانب النبلاء، دعموا سيطرتهم وقاموا معاً بخداع الشعب موصلين إياه حد تحمل العوز والإهانة بخضوع ودونما تذمر ولا استعصاء. كما كان رجال الدين العدو المبين لجماهير المدن والأرياف عندما ثار هؤلاء أخيراً من أجل القضاء في سياق الثورة على استغلال أعمال السخرة ولنيل حقوق الإنسان. إلا أنه كان هناك في واقع الأمر طبقتان داخل الهرمية الكنسية: فقد استحوذ رجال الدين ذوي المراتب العليا على كل الثروة، في حين مُنح جماهير قساوسة الأرياف أبرشيات فقيرة بلغ إيرادها السنوي على سبيل المثال في فرنسا ما يتراوح بين 500 و 2000 فرانك. وقد ثارت أيضاً هذه الطبقة الدنيا المحرومة من رجال الدين ضد الطبقة العليا وفي الثورة الكبرى التي اندلعت عام 1789 تحالفوا مع الشعب المكافح ضد سيطرة النبلاء الدنيويين والروحانيين.

5

وهكذا تم مع مرور الوقت قلب علاقة الكنيسة مع الشعب رأساً على عقب. فالمسيحية كانت قد نشأت كبشارة ومواساة للطبقات الفقيرة والمحرومة. وهي التي كانت في الأصل تعاليم ضد اللامساواة الاجتماعية وبشرت بجماعية المِلك من أجل القضاء على اللامساواة بين الأغنياء والفقراء. ولكن تدريجياً تحولت الكنيسة من مأوى للمساواة والأخوة إلى ناشر للامساواة والظلم. فبعد أن تخلت الكنيسة عن نضال الرسل الأوائل ضد الملكية الشخصية، بدأ رجال الدين بالقيام بجمع الثروات والاستحواذ عليها بأنفسهم وتحالفوا مع الطبقات المالكة التي عاشت على استغلال عمل الشعب ومن السيطرة عليه. ففي القرون الوسطى، حين كان النبيل الإقطاعي يحكم فلاحي السخرة، انتمت الكنيسة إلى طبقة النبلاء الحاكمة ودافعت عن سيطرتهم بكل ما أتيت من قوة ضد الثورة. وحين أطاح الشعب في نهاية القرن الثامن عشر في فرنسا وفي منتصف القرن التاسع عشر في أوروبا في سياق الثورة بالقنانة وبامتيازات النبلاء وبدأت سيطرة الرأسمالية الحديثة، حينئذ عادت الكنيسة وربطت نفسها بالطبقات المسيطرة، بالبرجوازية المالية والصناعية. ومع مرور الزمن لم يعد رجال الدين يمتلكون أرضاً بذات المقدار الذي كانوا يملكونه في السابق ولكن

في المقابل أصبحوا يملكون رأس مال حاولوا بواسطته المضاربة بحيث يستطيعون الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من استغلال عمل الشعب في الصناعة والتجارة التي يمارسها الرأسماليون. فقد امتلكت الكنيسة الكاثوليكية في النمسا على سبيل المثال وفق معطيات الكنيسة (قبل خمس سنوات) ثروة تتعدى 813 مليون كرونه، منها 300 مليون تقريباً في شكل أراضٍ، 387 مليون سندات، أي سندات أسواق مالية مختلفة تأتي بفوائد، وحوالي 70 مليون تقوم الكنيسة بإقراضها بفوائد عالية وبشكل شخصي للصناعيين والمضاربين في الأسواق المالية ... إلخ. وهكذا تحولت الكنيسة من سيد للسخرة في القرون الوسطى إلى رأسمالية صناعية ومالية حديثة. وكما انتمت في الماضي إلى الطبقة التي اعتصرت دم وعرق الفلاحين، أصبحت الآن تنتمي إلى الطبقة التي تغتني من خلال استغلال عمال المصانع والزراعة، من خلال استغلال الطبقة الكادحة.

وقد ظهر هذا التحول بشكل بارز في الأديرة؛ ففي بعض الأقطار، على غرار ألمانيا وروسيا، كان قد تم منذ زمن بعيد منع الأديرة الكاثوليكية وإلغاؤها. ولكن هناك، حيث ما زالت تحافظ على نفسها بشكل ثابت، كما في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، يظهر أيضاً إلى أي حد غدت الكنيسة شريكة في الرأسمالية التي تسيطر اليوم على الشعب.

شكلت الأديرة في القرون الوسطى الملاذ الأخير للشعب الفقير. ففيها اختبأ الشعب المضطهد من وحشية الأمراء والسادة الدنيويين وفظائع الحروب، وهناك بحث المرء عن ما يقي من الجوع ومن العراء، حين لم يبقَ هناك من ملاذ، وحينها لم تكن الأديرة تحرم المحتاجين من كسرة خبز أو ملعقة حساء. وغني عن التذكير أنه في القرون الوسطى، حين لم تكن تجارة السلع العامة قد انتشرت بعد كما هو الحال عليه اليوم، بل كان كل حوش وكل دير يُنتج كل شيء تقريباً بنفسه لتلبية احتياجاته الخاصة بمساعدة عمال السخرة والحرفيين ، حين لم يكن هناك مكان لبيع السلع الزائدة. وفي حال تجمع فائض حبوب أو خضار أو خشب أو مشتقات حليب، فليس للباقي منها من قيمة تقريباً، إذ لم يكن هناك من أحد يمكن بيعها له، كما أن الاحتفاظ بالمخزون لم يكن دائماً ممكناً وليس متوفر للجميع. إذاً كانت الأديرة سعيدة بإطعام وحماية الشعب الفقير من خلال منحه نزراً يسيراً مما حصلت عليه من ضرائب قامت هي باعتصارها من رعاياها من الفلاحين المسترقين، لاسيما وأن ذلك كان يحدث في الوقت الذي كان فيه كل بلاط نبيل مهم يقوم بذلك أيضا. وقد شكل ذلك بالنسبة للأديرة خاصة عمل إحسان ذا فائدة، إذ كان صيتها قد ذاع كملاذ للفقراء بالذات لتحصل في المقابل على هبات ومخزون كبير من الأغنياء وذوي النفوذ.

ولكـن حـين أصبـح في سـياق إنتـاج السـلع والصناعـة الرأسـمالية لـكل شيء في الاقتصـاد سـعره ويتـم تداولـه كسـلعة، تخلـت الأديـرة وبـلاط السـادة الروحانيـين عـن أعـمال الإحسـان بالكامـل وأوصـدوا الأبـواب في وجـه الفقـراء. حينئـذ لم يعـد الشـعب الفقـير يجـد ملجـأ ولا عونـاً، ولهـذا السـبب، مـن ضمـن أسـباب أخـرى غـيره، نشـأ مـع بدايـة سـيطرة الرأسـمالية في القـرن الثامـن عـشر، حـين لم يكـن العـمال قـد نظمـوا أنفسـهم بعـد بغيـة حمايـة أنفسـهم مـن الاسـتغلال، في الـدول الصناعيـة الرئيسـية، في إنجلـترا وفرنسـا، فقـر مدقـع بـين أفـراد الشـعب، شـبيه بذلـك الـذي عايشـه السـكان ذات مـرة قبـل القـرن الثامـن عـشر عنـد سـقوط الإمبراطوريـة الألمانيـة الرومانيـة المقدسـة.

ولكـن حينـذاك، عندمـا تحركـت الكنيسـة الكاثوليكيـة بالـذات مـن أجـل إنقـاذ الطبقـة الكادحـة الرومانيـة التـي هلكـت في العـوز، حاملـة بـشرى المشـاعية والملـك المشـترك والأخـوة، سـلكت الكنيسـة الآن، في ظـل سـيطرة رأس المـال، مسـلكاً مختلفـاً كليـاً. فلـم تتوانَ عن اسـتغلال العـوز الـذي وقـع فيـه الشـعب البسـيط من أجل تسـخير هـذه القـوى العاملـة الرخيصـة لمصلحتهـا واغتنائهـا؛ فقـد تحولـت الأديـرة إلى معاقـل للاسـتغلال الرأسـمالي وذلـك في شـكلها المرعـب، أي اسـتغلال عمـل النسـاء والأطفـال. مثـال مشـهور عـلى هـذا الاسـتغلال الـذي لا يعـرف الرحمـة للأطفـال حتـى يومنـا هـذا، عُـرض عـلى العـالم

في القضيـة المقامـة ضـد ديـر "إلى الراعـي الطيـب" في العـام 1903 في فرنسـا، حيـث كان هنـاك بنـات بعمـر 12و10و9 سـنوات يُجـبرن عـلى العمـل الشـاق بشـكل متواصـل مـما أدى إلى فقدانهـن البـصر والصحـة، حيـث كانـت تغذيتهـن غـير كافيـة إطلاقـا وتـم التحفـظ عليهـن كـما ولـو كـن في سـجن شـديد الصرامـة.

واليـوم تـم تقريبـاً القضـاء عـلى الأديـرة في فرنسـا أيضـاً وبالتـالي ضاعـت عـلى الكنيسـة فرصـة الاسـتغلال الرأسـمالي المبـاشر. كذلـك تـم القضـاء منـذ وقـت طويـل عـلى ضريبـة العُـشر، وشـقاء فلاحـي السـخرة. إلا أن رجال الديـن لا زالـوا يحتفظـون حتـى اليـوم بوسـائل متنوعـة لإنهـاك الشـعب العامـل مـن خـلال تسـديد رسـوم القداديـس والزيجـات والجنـازات والتعميـد وأشـكال مختلفـة مـن التدابـير الدينيـة. وتجـبر الحكومـات التـي تقـف إلى جانـب رجـال الديـن السـكان عـلى الـدوام عـلى افتـداء أنفسـهم منهـم. كما تحصـل الكنيسـة في كل مكان، باسـتثناء الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وسـويسرا، حيـث الديـن شـأن خـاص، عـلى مرتبـات عاليـة، عـلى الشـعب بالطبـع أن يقـوم بتوفيرهـا بعـرق جبينـه. ففـي فرنسـا عـلى سـبيل المثـال يحصـل رجـال الديـن الكاثوليـك حتـى يومنـا هـذا عـلى 40 مليـون فرانـك كمرتبـات حكوميـة. خلاصـة القـول أن الكنيسـة تعيـش اليـوم، جنبـاً إلى جنـب مـع الحكومـة وطبقـة الرأسـماليين، عـلى حسـاب العمـل الشـاق للشـعب المُسـتغَل. أمـا أيـة إيـرادات تحصـل

عليها الكنيسة التي كانت ملجأ الفقراء والمحرومين، فهذا ما تُظهره على سبيل المثال الأرقام الخاصة بإيرادات رجال الدين الكاثوليك في النمسا. فقد بلغت قبل خمس سنوات إيرادات الكنيسة السنوية في جميع أرجاء النمسا 60 مليون كرونه. في حين بلغت النفقات 35 مليونا فقط، أي "ادخرت" الكنيسة في سنة 25 مليونا على حساب دم وعرق الشعب العامل.

بشكل مفصل:

كرسي فيينا الأسقفي 300.000 كرونه إيرادات سنوية. نفقات أقل من النصف، "مدخرات" صافية بالتالي 150.000 سنوياً. في حين بلغت ممتلكات هذا الكرسي الأسقفي حوالي 7 ملايين.

إيرادات كرسي براغ الأسقفي السنوية تعدت النصف مليون، والنفقات حوالي 30.000. في حين بلغت ممتلكات هذا الكرسي الأسقفي حوالي 11 مليون.

إيرادات كرسي أولموتس Olmütz الأسقفي السنوية تعدت النصف مليون، والنفقات حوالي 40.000. في حين زادت ممتلكات هذا الكرسي الأسقفي عن 14 مليون.

وليس أقل سوءاً ما تقوم به أيضاً الطبقة الدنيا من رجال الدين من سلب للسكان، تلك الطبقة التي عادة ما تشكو من الفقر وقساوة قلب الشعب. فقد بلغت عوائد الأبرشيات في النمسا أكثر من 35 مليون كرونه والنفقات في المقابل 21 مليون فقط، لتبلغ "مدخرات" القساوسة السنوية بالمجمل 14 مليون. في المقابل يبلغ مجموع ثروة الأبرشيات في النمسا أكثر من 450 مليون. وفي الختام حصلت الأديرة في النمسا أيضاً قبل خمس سنوات على "ربح صافٍ"، أي بعد خصم النفقات، يزيد على خمسة ملايين سنوياً. وقد نمت هذه الثروات سنوياً، في حين نمى العوز لدى الشعب المستغل من قبل الرأسمالية والدولة. وكما يحصل في النمسا، يحصل أيضاً لدينا هنا وفي كل مكان.

6

بعـد أن قـد تعرفنـا قليـلاً عـلى تاريـخ الكنيسـة ورجـال الديـن، علينـا أن لا نتعجّـب اليـوم حـين نجـد أن رجـال الديـن لدينـا قـد انحـازوا إلى جانـب الحكومـة القيصريـة والرأسـماليين وقامـوا بتوجيـه أقـذع الشـتائم إلى العـمال الثوريـين الذيـن يناضلـون مـن أجـل حيـاة أفضـل. يسـعى العـمال الاشـتراكيون الديمقراطيـون الواعـون بالأسـاس إلى تحقيـق فكـرة المسـاواة الاجتماعيـة والأخـوة بـين الناس في المجتمـع، تلـك التـي كانـت أسـاس الكنيسـة المسـيحية في بداياتهـا الأولى. هـذه المسـاواة، التـي كانـت حينـذاك غـير ممكنـة في مجتمـع قائـم عـلى العبوديـة ولاحقـاً حينـما سـادت أعـمال السـخرة، أصبحـت الآن ممكنـة، إذ أن الرأسـمالية الصناعيـة تسـود العـالم أجمـع. مـا عجـز عـن تحقيقـه رسـل المسـيحية مـن خـلال مواعـظ ناريـة ضـد الأغنيـاء الأنانيـين ، يمكـن عـلى المـدى المنظـور أن تحققـه الطبقـات الكادحـة الحديثـة، طبقـة العـمال الواعيـين، حـين يكونـون في جميـع الأقطـار قد اسـتولوا على السـلطة السياسـية وانتزعـوا المصانـع والأرض وجميـع وسـائل العمـل مـن أجـل الملكيـة المشـتركة لجميـع العاملـين. أمـا الشـيوعية التـي تسـعى إليهـا الاشـتراكية الديمقراطيـة فلـم تعـد تلـك التـي تقسـم الـثروة التـي تنتجهـا العبيـد والاقنـان بـين المتسـولين والأغنيـاء والكسـالى ، بـل جماعـة عمـل مخلـص واسـتمتاع عـادل بالثـمار المشـتركة لهـذا العمـل. لم تعـد الاشـتراكية تعنـي أن الأغنيـاء يُشـاركون

الفقـراء، بـل تعنـي بالـذات التخلـص مـن هـذا الفـرق بـين الأغنيـاء والفقـراء مـن خـلال تطبيـق ذات واجـب العمـل عـلى جميـع القادريـن عـلى العمـل والقضـاء كليـاً عـلى اسـتغلال الفـرد مـن قبـل الآخريـن.

ومـن أجـل تطبيـق هـذا النظـام الاشـتراكي، يجـب عـلى العـمال في جميـع الأقطـار تنظيـم أنفسـهم في إطـار حـزب العـمال الاشـتراكي الديمقراطـي الـذي يسـعى إلى تحقيـق هـذا الهـدف. ولهـذا السـبب بالـذات تشـعر الطبقـات المالكـة، التـي تعيـش اليـوم عـلى اسـتغلال العـمال، بكراهيـة شـديدة نحـو الاشـتراكية الديمقراطيـة وتنويـر العـمال والحركـة العماليـة. إلا أن رجـال الديـن، بـل الكنيسـة جميعهـا تنتمـي هـي الأخـرى إلى هـذه الطبقـات المسـيطرة. فجميـع هـذه الـثروات الضخمـة التـي راكمتهـا الكنيسـة تـم اسـتملاكها مـن خـلال الاسـتغلال والتمييـز ضـد الشـعب العامـل. فـثروة رؤسـاء الأسـاقفة والأسـاقفة والأديـرة والأبرشـيات تـم اكتسـابها، تمامـاً مثـل ثـروة الصناعيـين والتجـار وأقطـاب الأريـاف، بالعـرق الدامـي للشـعب العامـل في المـدن والأريـاف. وإلا فمـن أيـن أتـت الهبـات ووصايـا التوريـث التـي قدمهـا الأغنيـاء إلى الكنيسـة؟ عـلى مـا يبـدو ليـس مـن عمـل ذاتي قـام بـه هـؤلاء الأغنيـاء المتظاهـرون بالتديـن، بـل مـن اسـتغلال العـمال الذيـن كدحـوا مـن أجلهـم. ففـي السـابق نشـأت هـذه الـثروات المقدمـة قربانـاً لرجـال الديـن مـن خـلال اسـتغلال فلاحـي السـخرة ، واليـوم مـن

خلال استغلال الأجير. أما في ما يتعلق بالمرتبات التي يحصل عليها اليوم رجال الدين من الحكومة، فمن الواضح أن مصدرها هو الخزينة العامة للدولة التي يتم ملؤها بشكل أساسي من خلال اعتصار جماهير الشعب البسيط. إذا يقوم رجال الدين هم أيضاً بالتشديد على الشعب ويعيشون على إذلاله وقمعه وتجهيله، كما تفعل كامل الطبقة الرأسمالية. فالشعب المستنير، الذي يناضل من أجل حقوقه والمساواة بين الناس، مكروه من قبل القساوسة بقدر ما هو مكروه من جميع الرأسماليين المتطفلين، لأن تطبيق المساواة والقضاء على الاستغلال هو بمثابة رصاصة الرحمة بالأخص لرجال الدين الذين يعيشون على الاستغلال وعدم المساواة. ولكن الأهم من ذلك هو أن الاشتراكية تسعى إلى منح جميع البشرية سعادة صادقة ونزيهة على الأرض، منح كامل الشعب أكبر قدر ممكن من التعليم والمعرفة ونفوذ في المجتمع. وبالذات هذه السعادة الدنيوية لجميع البشر وهذا الوضوح الذهني يخشاه خدم الكنيسة كما يخشون الوباء.

وكما زج الرأسماليون عقول الشعب في سجن العوز والعبودية، حبس رجال الدين روح الشعب من أجل مساعدة الرأسماليين بهدف سيطرتهم عليه ، خشية أن يقوم شعب متعلم ورشيد بالنظر إلى العالم والطبيعة من خلال عيون رفع العلم الغشاوة عنها،

الأمـر الـذي سـيقلص مـن سـيطرة القساوسـة التـي لـن يعـود ينظـر إليهـا كقـوة وكمصـدر أعـلى لـكل نعمـة على الأرض. فمـن خـلال قيامهـم إذاَ بتغيـير وتزويـر التعاليـم الأصليـة للمسـيحية، تلـك التـي كانـت تنشـد سـعادة الفقـراء الدنيويـة، يحـاول رجـال الديـن المعاصريـن إقنـاع الشـعب، بـأن مـا يُعانيـه مـن عـوز وإذلال لا يعـود إلى الظـروف الاجتماعيـة المشـينة، بـل إلى أمـر السـماء، إلى قضـاء وقـدر العنايـة الإلهيـة. ومـن خـلال ذلـك بالـذات تقتـل الكنيسـة الـروح في الإنسـان العامـل، تقتـل فيـه الأمـل والإرادة في مسـتقبل أفضـل، تقتـل فيـه الإيمـان بذاتـه وقـواه واحـترام الكرامـة الإنسـانية الذاتيـة. فقساوسـة اليـوم قائمـون بتعاليمهـم الخاطئـة والمسـممة للـرّوح بفضـل جهل الشـعب ومهانتـه ويريـدون المحافظة عـلى هـذا الجهـل وهـذه المهانـة إلى الأبـد.

وعلى ذلك توجد براهين غير قابلة للدحض.

ففـي البلـدان التـي يتمتـع فيهـا رجـال الديـن الكاثوليـك بسـلطة غـير محـدودة عـلى تفكـير الشـعب كـما في إسـبانيا وإيطاليـا، هنـاك يسـود أيضـاً جهـل كبـير وجريمـة كـبرى. لنأخـذ عـلى سـبيل المثـال ولايتـين في ألمانيـا لغـرض المقارنـة: بافاريـا وسكسـونيا. بافاريـا هـي بالدرجـة الأولى بلـد مزارعـين، حيـث لا يـزال رجـال الديـن الكاثوليـك فيهـا يتمتّعـون بتأثـير كبـير عـلى الشـعب. سكسـونيا في المقابـل بلـد صناعـي متقـدم، حيـث تلعـب الاشـتراكية الديمقراطيـة منـذ سـنوات طويلـة تأثـيراً عـلى السـكان

العاملين هناك. ففي سكسونيا حصل على سبيل المثال الاشتراكيون الديمقراطيون في جميع الداوئر الانتخابية تقريباً على مقعد في الرايخستاغ، مما جعل هذه الولاية مكروهة من البرجوازية ويتم تشويه سمعتها ونعتها بالـ"حمراء"، أي اشتراكية ديمقراطية. والنتيجة؟ تظهر الإحصائيات الرسمية، أن عقد مقارنة بين أرقام الجرائم التي ارتكبت خلال سنة في بافاريا الكاثوليكية وفي سكسونيا "الحمراء" (عام 1898)، من بين 100.000 شخص: في حال السرقات الخطيرة: بافاريا 204، سكسونيا 185، وفي حال الأذى الجسدي: بافاريا 296، سكسونيا 72، وفي حال حنث اليمين: بافاريا 4، سكسونيا 1. كذلك الأمر إذا ما نظر المرء إلى أرقام الجريمة في مقاطعة بوزين Posen، حيث كان هناك في ذات العام من بين 100.000 شخص: أذى جسدي 232، برلين 172. وفي روما، مقر البابا، تم في السنة قبل الأخيرة لقيام الدولة البابوية، أي لقيام النفوذ الدنيوي للبابا في العام 1869، تم في شهر واحد الحكم على 279 إنسان بتهمة القتل، 728 بتهمة التسبب بأذى جسدي، 297 بتهمة السطو و21 بتهمة الإحراق المتعمد! هذه كانت ثمار السيطرة الحصرية لرجال الدين على تفكير الشعب المسكين.

هذا لا يعني بالطبع أن رجال الدين يشجعون على الجريمة، بل على النقيض من ذلك، يُسمع من القساوسة كلام كثير ضد السرقة والسطو وإدمان الخمور. فمن

المعـروف أن السرقـة والـضرب والـشرب ليسـت وليـدة عنـاد أو اصرار، بـل لهـا سـببين: الفقـر والجهـل. فمـن يُبقي الشـعب إذاً في الفقـر والجهـل، كـما يفعـل رجـال الديـن، مـن يقتـل الإرادة والطاقـة في الشـعب في بحثـه عـن مخرج مـن الفقـر والجهـل، ومن يقـوم بكل وسـيلة لعرقلـة أولئك الذيـن يريـدون تثقيـف الشـعب وانتشـاله مـن الفقـر، هو أيضـاً مسـؤول عـن انتشـار الجريمـة والإدمـان عـلى الخمـر، كـما ولـو كان يُشـجع عـلى ذلـك.

كذلـك سـارت الأمـور حتـى وقـت قصـير في مناطـق المناجـم في بلجيكيـا الكاثوليكيـة إلى أن أتى الاشـتراكيون الديمقراطيـون وصرخـوا بصـوت عـالٍ في وجـه العامـل البلجيـكي المتعـوس والمهـان: انهـض أيهـا العامـل، لا تبـقَ أسـير مهانتـك، لا تـضرب ولا تـشرب كحـولاً ولا تفقـد شـجاعتك عنـد اليـأس، بـل اقـرأ، ثقـف نفسـك، تكتـل مـع إخوتـك في منظمـة، ناضـل ضـد المسـتغلين الذيـن يعتصرونـك، وسـتحرر نفسـك مـن الفقر، سـتكون إنسـاناً!

وهكـذا يحمـل الاشـتراكيون الديمقراطيـون في كل مـكان إلى الشـعب الانبعـاث، يعينـون اليائسـين، يجمعـون الضعفـاء ليشـكلوا قـوة، يُبـصِّرون البلـداء ويبينـون طريـق التحـرر ويدعـون الشـعب إلى إقامـة مملكـة المسـاواة والحريـة وحـب الغـير عـلى الأرض. في المقابـل يدعـو خـدم الكنيسـة الشـعب في كل مـكان إلى الخنـوع واليـأس والمـوت الذهني-الروحـاني. لـو ظهر المسـيح اليوم عـلى الأرض، لصنـع بهـؤلاء القساوسـة والأسـاقفة ورؤسـاء

الأساقفة، الذين يحمون الأغنياء ويعيشون على عرق الملايين الدامي، ذات الشيء الذي صنعه في حينه مع أولئك التجار الذين أخرجهم من رواق المعبد، حتى لا يدنسوا بيت الله بأعمالهم المشينة.

لذلك استوجب قيام نضال حياة أو موت بين رجال الدين الذين يريدون استدامة الفقر والاسترقاق، والاشتراكيين الديمقراطيين الذين يأتون الشعب ببشارة التحرر، كما بين الظلام الدامس والشمس المشرقة. وكما تخلي عتمة الليل مكانها على مضض للفجر المشمس، تريد الآن خفافيش الكنيسة بجببهم السوداء حجب نظر الشعب حتى لا ترى عيناه ضوء التحرر الاشتراكي البازغ. ولأنهم لا يستطيعون محاربة الاشتراكية بالعقل والحقيقة، يلوذون بالعنف والظلم. ينشرون بلغة يهوذا الإسخريوطي افتراءات مشينة عن أولئك الذين يُبصِّرون الشعب، ومن خلال الكذب والافتراء يحاولون التشهير بأولئك الذين يضحون بدمهم وحياتهم من أجل الشعب. وفي نهاية الأمر يبرر ويدعم هؤلاء القساوسة، خدم العجل الذهبي، جرائم الحكومة القيصرية، ويباركون قتلة الشعب، وينتصبون حماية لعرش الأخير من المستبدين القياصرة، ذلك الذي يقمع الشعب بالحديد والنار، كما فعل نيرون في روما بمطاردته للمسيحيين الأوائل!

ولكن هباءً تذهب هذه الجهود! هباءً تهدرون غضباً أنتم، خدم المسيحية المنحطون، أنتم من أصبحتم

الآن خـدم نـيرون! هبـاءً تسـاعدون قتلتنـا وقطاريزنـا [قطـروز كلمـة تركيـة دارجـة في العربيـة وتعنـي الشـخص الـذي يـوكل إليـه مهمـة ملاحقـة وتحريـض ومحاولـة القبـض عـلى شـخص مـا- المترجـم]، عبثـاً تحمـون بإشـارة الصليـب الأغنيـاء ومسـتغلين الشـعب! وكـما لم تفلـح في حينـه الوحشـية والافـتراءات لوقـف زحـف الفكـرة المسـيحية، هـذه الفكـرة التـي دنسـتموها مـن خـلال خدمتكـم للعجـل الذهبـي، فلـن توقـف جميـع محاولاتكـم اليـوم زحـف الاشـتراكية. أنتـم اليـوم، وفقـاً لتعاليمكـم وطريقتكـم في العيـش، وثنيـون. أمـا نحـن الذيـن نـأتي الفقـراء والمُسـتغَلين والمضطهديـن ببشـارة الأخـوة والمسـاواة، نحـن اليـوم نغـزو العـالم كمِثـل ذلـك الـذي قـال: "حقـاً، حقـاً أقـول لكـم أن مـرور جمـل مـن ثقـب إبـرة أيـسر مـن أن يدخـل غنـي إلى ملكـوت اللـه."

7

وتبقى بضع كلمات في الختام. يملك رجال الدين طريقتين لمكافحة الاشتراكية الديمقراطية. هناك، حيث لا تزال حركة العمال في طور الحصول على حقوق مدنية، كما هو الحال آنياً عندنا [بولندا]، وحيث الطبقات المسيطرة لا تزال فريسة لوهم أنه بإمكانهم الإجهاز عليها [الاشتراكية الديمقراطية] بالعنف، يظهر رجال الدين أيضاً من خلال مواعظ صارمة فقط، يشوهون بها الاشتراكيين ويهددون العمال "المتطاولين". لكن هناك، حيث تسود الحرية السياسية، ويتحول حزب العمال إلى قوة، كما هو الحال في ألمانيا وفرنسا وهولندا، يلجأ رجال الدين إلى طرق أخرى. بدهاء يخفون أنياب الذئاب ومخالبها تحت جلد حمل وديع، ويتحولون من العدو المخلص للعمال إلى صديقهم الزائف. فالقساوسة يتحركون بأنفسهم نحو تنظيم العمال وتأسيس نقابات عمالية "مسيحية". هم يحاولون بذلك اصطياد الأسماك في الشباك، أي إيقاع الأسماك في شباك نقاباتهم الزائفة، حيث يعلمونهم الخضوع قبل أن ينضموا إلى نقابات الاشتراكية الديمقراطية التي تعلمهم الكفاح ضد الاستغلال والحفاظ عليهم منه.

وحين تكون في نهاية الأمر الحكومة القيصرية قد سقطت تحت ضربات الطبقة الكادحة البولونية

والروسية، ويبزغ فجر الحرية السياسية في بلادنا أيضاً، سنشهد بالتأكيد أن ذات رئيس الأساقفة بوبيل Popiel وذات القساوسة، الذين يشتمون الآن العمال المناضلين بشدة في الكنائس ، يبدأون بتنظيمهم بعنف في اتحادات "مسيحية" و "وطنية"، بغية تجهيلهم بطريقة جديدة. فمنذ الآن بدأنا نشهد بداية صغيرة لهذا العمل الهدام في اتحادات "الوطنيين الديمقراطيين[5]"، الشركاء المستقبليين، الذين تدعمهم الكنيسة اليوم في تشويه سمعة الاشتراكية الديمقراطية.

لذلك على العمال أن يكونوا مستعدين، ألا يقعوا غداً، بعد انتصار الثورة وتطبيق الحرية السياسية، في شرك الكلمات المعسولة لأولئك الذين يتجاسرون اليوم من على المنابر مدافعين عن النظام القيصري قاتل العمال وعن سيطرة رأس المال التي تدفع بالشعب نحو الفقر. ومن أجل الوقاية من عداوة رجال الدين اليوم، خلال الثورة، ومن صداقتهم الغادرة غداً، بعد الثورة، على العمال الانتظام على الفور في حزبهم العمالي والانضمام إلى الاشتراكية الديمقراطية. وحري بالعمال الواعين الرد على جميع حملات القساوسة بالجواب التالي:

5 "نارودافا ديمقراسيا" انبثقت عن "ليغا بولسكا" التي تم تأسيسها عام 1887 في سويسرا (منذ 1894 "ليجا نارودافا") وتشمل أجزاء من البرجوازية والملاكين الكبار والبرجوازية الصغيرة. أكثر ممثليها شهرة كان رومان دموفسكي.

لا تسلب الاشتراكية الديمقراطية أحداً عقيدته ولا تحارب الدين! فعلى النقيض هي تطالب بحرية الضمير الكاملة للجميع واحترام كل عقيدة وكل إيمان.

ولكن إذا أراد القساوسة استغلال المنابر كوسيلة صراع سياسي ضد طبقة العمال، سيتعامل العمال معهم كما مع جميع أعداء حقوقهم وتحررهم.

فمن يدعم المستغلين والمُضطهِدين ويحاول تكريس النظام المجتمعي المشين القائم اليوم، هو عدو لدود للشعب، سواء ارتدى جبة القسيس أم بزة الشرطي.

المعرفة حول الحركات والتيارات السياسيّة الدينيّة في العالم والمنطقة العربية متناثرة وغالبا ما تكون مؤطرة من قبل خصومها السياسيين. هناك احتياج إلى الابتعاد عن تشويه صورة المعارضين السياسيين والاشتباك على المستوى السياسي من أجل العمل ضد التنميط والعنصرية.

توفر مؤسسة روزا لوكسمبورغ من خلال نشرها لمقالات وتحليلات تهدف إلى توفير فهم أعمق للحركات السياسيّة الدّينيّة، أساساً لنقاش سياسي مفتوح مع الأطراف السياسية المختلفة المهتمة بالدخول في حوار مبني على التضامن والتفكير النقدي.